

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النمل

سورة النمل سورة مكية، نزلت بعد سورة الشعراء، وقبل سورة القصص، كما ترتيبها في المصحف الشريف.
وهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿طَسَّ تَلَكَّ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾
﴿طَسَّ﴾ من الحروف المقطعة التي تحدثنا عنها سابقًا.

﴿تَلَكَّ﴾ أي: هذه الآيات التي في هذه السورة هي ﴿ءَايَتُ﴾ من ﴿الْقُرْآنِ﴾ الكريم ﴿و﴾ هي آيات ﴿كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ لما فيه من العلوم والحكم، كما أنه مظهر للحق من الباطل.

وهذا الكتاب: ﴿هُدًى﴾ من الضلال، ﴿وَبُشْرَى﴾ بالجنة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به.
أتحبون أيها الكرام معرفة هؤلاء المؤمنين به، المبشرين بالجنة؟ إنهم:

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾
يعني: الموصوفون بهذه الصفات الثلاث:

الأولى: إقامتهم للصلاة.

فهم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يحافظون عليها، ويؤدونها تامة، كاملة.

الثانية: إيتاؤهم للزكاة.

﴿و﴾ هم الذين ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ من أموالهم.

الثالثة: تصديقهم باليوم الآخر.

﴿وَهُمْ﴾ كذلك ﴿بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وله بالعمل الصالح يستعدون.
وبالنسبة لهذه الصفة الثالثة، فإن من لم يؤمن باليوم الآخر فإن الله عز وجل يهدده،
قائلًا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ
سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾﴾
أي: ﴿إِنَّ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لأنهم لا يؤمنون بالغيب أصلاً،
قد ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة، وذلك بتركيب الشهوة فيهم، حتى رأوها حسنة.
لذلك ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يستمرون عليها، وينهمكون فيها.
﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ﴾ الجزاء التالي:

أولاً: ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: العذاب الشديد في الدنيا والآخرة.
ثانياً: الخسارة الفادحة ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ وذلك لمصيرهم إلى النار
المؤبدة عليهم.

ثم يوضح الله مصدر هذا القرآن في خطاب إلهي للنبي ﷺ، حيث يقول له:

﴿وَإِنَّكَ لَلنَّاقِ الْأَقْرَأَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾
يعني: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَلنَّاقِ﴾ وتوتئ وتوحي إليك هذا ﴿الْقُرْآنِ﴾ من
الكريم ﴿مِنْ لَدُنْ﴾ من عند ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

ما دام مصدر القرآن هو الحكيم العليم، سبحانه وتعالى: فخذ من آثار حكمته وعلمه
هذا القصص، الذي نؤنسك به، ونعلمك وأمتك من خلاله.

وهذه هي القصة الأولى وهي: قصة موسى ﷺ.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ
﴿٧﴾ تَصْطَلُونَ﴾

اذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ ﷺ ﴿لِأَهْلِهِ﴾ لزوجته عند عودته من أرض مدين إلى

مصر ﴿إِنِّي ءَأْتِسْتُ﴾ رأيت من بعيد ﴿نَارًا﴾ سأذهب إلى أهلها، و ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا﴾ أي: من عندها إما ﴿يَحْبَرِي﴾ عن الطريق الذي يوصلنا إلى مصر.
﴿أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ شعلة منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون بها من هذا البرد الشديد.

وذهب موسى إلى النار..

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾
فلما وصل موسى إلى هذه النار ﴿نُودِيَ﴾ أي: سمع نداء يقول: يا موسى ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ أي: بارك الله مَنْ في مكان النار، وهو: أنت ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: بارك حول مكانها، وهي: البقعة المباركة.

﴿و﴾ يقول أيضا: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ويقول ثالثاً: ﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي يخاطبك ويناجيك.

وكان هذا الحديث الإلهي مقدمة وتمهيداً، لما سيظهر الله على يده من المعجزات.

حيث قال له:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾
﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾

وبالفعل ألقى موسى من يده عصاه، ولكنه فوجئ بالعصى تهتز، إنها تتحرك، لقد انقلبت حية، خاف منها موسى ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ رجع موسى للخلف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجع إليها.

وهنا، قال له ربه: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ﴾ منها، حيث ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى﴾ عندي ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ من حية، أو غيرها.

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ فهو الذي يخاف، بل إن مَنْ ظلم ﴿ثُمَّ بَدَّلَ﴾ فعله وقوله ﴿حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ كان منه ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ﴾ له ﴿رَحِيمٌ﴾ به.

واطمأن موسى، وثبت، ووقف يستمع لما يوحى إليه. فكان الأمر الثاني:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢)

ونفذ موسى الأمر وأدخل موسى يده في جيبه وأخرجها، فخرجت لا سمراء كما كانت، بل بيضاء من غير مرض، لها شعاع مثل شعاع الشمس.

ثم قال له ربه: هذه آية وعلامة على نبوتك ضمن ﴿تِسْعِ آيَاتٍ﴾ تدل على وحدانية الله وقدرته نرسلك بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ في مصر، تقنعهم بها في دعوتك إياهم إلى الإيمان بالله، حيث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

وعرف موسى أنه نبي. ذهب موسى إلى فرعون وقومه يبلغهم رسالة الله، وبلغهم رسالة الله، وأراهم آيات الله ومعجزاته.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٣) ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَقِنْتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤)

يعني: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا مع موسى ﴿مُبْصِرَةً﴾ واضحة مقنعة، ﴿و﴾ لم يؤمنوا بها، بل ﴿حَدِّثُوا﴾ ولم يقرروا ويعترفوا ﴿بِهَا﴾ كفراً وعناداً ﴿و﴾ قد ﴿أَسْتَقِنْتَهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أنها صادقة، وأنها من عند الله، وذلك ﴿ظُلْمًا﴾ منهم ﴿وَعُلُوًّا﴾ وتكبراً على الله وآياته!! عاقبناهم بالإغراق في البحر، وأهلكناهم.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ بهذا الإهلاك نظرة اعتبار وتدبر...!!

وبذلك انتهت قصة موسى ﷺ.

وإليك القصة الثانية وهي: قصة داود وسليمان ﷺ. يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥)

يعني: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ابنه ﴿عِلْمًا﴾ بالقضاء بين الناس، ومنطق الطير وغير ذلك، فعملًا به، وأفادا منه.

﴿وَقَالَا﴾ بلسان الحمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ بما آتانا من علم ﴿عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذي لم يؤت علمًا، والذي لم يؤت مثل علمنا.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَّيُّهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٦)

أي: ﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَنُ﴾ أباه ﴿دَاوُدَ﴾ في النبوة والعلم، دون باقي أولاده.

﴿وَقَالَ﴾ سليمان ﷺ - منادياً ومُعلِّماً بما أفاض الله عليه من خير وإنعام، ولافتاً أنظار الناس إلى هذه المعجزات - ﴿يَتَّيُّهَا النَّاسُ عُلْمَنَا﴾ من ربنا ﴿مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ ما يفهم من أصواته ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أوتي منه الأنبياء والملوك. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أيها الناس ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ الواضح من الله تعالى.

ثم يبين الله بعض هذا الفضل فيقول:

﴿وَحِشْرَ لِّسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٧)

وذات مرة جمع الله ﴿لِّسُلَيْمَانَ﴾ ﷺ ﴿جُنُودُهُ﴾ التي سخرها له ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ من كل مكان.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يجعلون صفوفًا لا يتقدم أحد منهم على أحد، في نظام بديع، وتناسق محكم.

وصاروا يطوفون بأنحاء المملكة..

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَّيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨)

أي: سار سليمان وجنوده ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا﴾: مروا ﴿عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ لقومها من باب النصيحة، وقد رأت جند سليمان قادمون ﴿يَكْأَيُّهَا
النَّمْلُ ادْخُلُوا﴾ فوراً ﴿مَسْكِنَكُمْ﴾ حتى ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾
الكثيرون ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بكم؛ لصغر حجمكم.
وسمعها سليمان، وفهم قولها:

﴿فَنَبَسَمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى
وَلَدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٩)
﴿فَنَبَسَمَ﴾ سليمان ﴿رَبِّ﴾ ضاحكاً متعجباً ﴿مِّنْ قَوْلِهَا﴾ الواعي، المحذّر
لقومها، الناصح لهم.. ﴿وَقَالَ﴾ لربه داعياً: يا ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ﴾ عليّ بالنبوة والملك والعلم ﴿وَعَلَى وَلَدَتِي﴾ فهما سبب وجودي.
﴿و﴾ يا رب أعني ﴿أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا﴾ يسعد العباد، ويصلح البلاد، و
﴿تَرْضَاهُ﴾ أنت.

﴿وَأَدْخِلْنِي﴾ يا رب ﴿بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين أنعمت عليهم
﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [النساء: ٦٩].
وسار سليمان وجنوده بعد ذلك..

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٢٠)
﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ (٢١)
يعني: ﴿وَتَفَقَّدَ﴾ سليمان ﴿الطَّيْرَ﴾ أي: نظر إليها، وتمم عليها معرفة لأحوالها،
واطمئنناً على أمورها، شأن القائد الصالح الناجح، ولم ير سليمان الهدهد!!
﴿فَقَالَ﴾ لمن معه ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ﴾ بين الطيور؟ أهو هنا ولكنه مستتر
عن عيني ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ عني، وعن تواجده مع جنودي؟
وعرف سليمان ﴿رَبِّ﴾، أن الهدهد غائب، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ على
غيابه بدون إذن مني ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ عقاباً على هذا الغياب ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي﴾ على
غيابه هذا ﴿سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ عذر واضح، وفي هذه الحالة لا أعذبه، ولا أذبحه.

ولمّا علم الهدهد بهذا التهديد الملكي عاد سريعاً، يقول الله تعالى:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: غاب الهدهد زماناً يسيراً، وجاء إلى سليمان، وسأله سليمان - بالطبع - عن سر غيابه ﴿فَقَالَ﴾ الهدهد ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي: أطلعت على شيء لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، وكأن سليمان سأل: أين كنت؟ وما هذا الذي علمت به وحدك؟ فقال: ﴿و﴾ هو أني ﴿جِئْتُكَ مِنْ﴾ عند ﴿سَبَإٍ﴾ وهي قبيلة كبيرة باليمن، ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي: بخبر صادق.

قال سليمان: وما هذا الخبر؟ قال الهدهد:

﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾

يعني: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةً﴾ في سبأ أمرها عجيب، ثم أخبر الهدهد سليمان عنها بهذه التفاصيل، فقال:

أولاً: ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ أي: ملكة على قومها.

ثانياً: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ﴾ متاع الدنيا، وما يحتاجه الملوك من ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾.

ثالثاً: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ كبير فخم مزخرف.

ثم أخبر عنها وعن قومها بقوله: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الذي نوحده ونعبده ونسجد له، وهذا من عمل الشيطان.

﴿و﴾ قد ﴿زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ هذه، وهي عبادة الشمس

﴿فَصَدَّهُمْ﴾ بذلك ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ الحق في معرفة الله ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ بسبب ذلك ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ سبحانه.

ثم وصف ربه تعالى قائلاً: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ﴾ المختفي ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ من مطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ من نبات.

﴿و﴾ هو سبحانه الذي ﴿يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ في قلوبكم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بألستكم. وهو: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

وسمع سليمان من الهدهد أخباره، أتدرون ماذا فعل؟

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٧)

﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿سَنَنْظُرُ﴾ فيما قلت؛ لنعرف ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرتنا به ﴿أَمْ كُنْتَ﴾ فيه ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لتتخلص مما نريد أن نفعله بك من العذاب أو الذبح؟

ولكن كيف يعرف ذلك؟ انظروا، قال له:

﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهٗ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨)

يعني: كتب سليمان كتاباً إلى هذه الملكة التي أخبره بها الهدهد، وأعطى هذا الكتاب للهدهد، وأعطاه أيضاً تعليمات واضحة، حيث قال له: ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهٗ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إليها وقومها هؤلاء.

﴿ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ يعني ابتعد عنهم قليلاً بحيث تراه وتسمعهم؛ لتعرف ما يكون في أمرهم.

﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ماذا يكون ردهم على كتابنا إليهم.

وأخذ الهدهد كتاب سليمان ﷺ وطار به إلى سبأ باليمن، ودخل على الملكة، واسمها بلقيس، وحولها جندها، وألقى إليها الكتاب. وفوجئت بذلك. ولكنها أخذت الكتاب وقرأته، وعرفت ما فيه ثم..

﴿قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُؤْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يعني: اتجهت إلى مَنْ في مجلسها، وأخبرتهم بهذا الأمر العجيب الذي حدث أمامهم ﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿يَأْتِيهَا الْمَلَأُ إِنِّي﴾ كما رأيتم ﴿أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ﴾. ثم وصفت الكتاب قائلة ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: أن ما فيه كلام طيب، ولا عيب فيه.

ثم بينت مصدر الكتاب، وَمَنْ الذي أرسله بقولها ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الكتاب ﴿مِن سُلَيْمَانَ﴾ ويبدو أن سليمان عليه السلام كان معروفاً لها ولقومها، ولذلك لم يسأل واحد منهم عن سليمان بل سكت الجميع. ثم قرأت مضمون هذا الكتاب: ﴿... وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُؤْنِي مُسْلِمِينَ﴾، منتهى الاختصار استفتاح للخطاب باسم الله، ونهي عن التكبر والاستعلاء، وأمر بالحضور إليه خاضعين مؤمنين بالله ورسوله.

وفكرت بلقيس وكانت حكيمة ذكية، الأمر ليس سهلاً، إن الخطاب من سليمان وهو ليس بالشخص العادي، وحامل الخطاب هدهد، وهو ليس بالحامل العادي لمثل ذلك، وهذا الخطاب ليس عادياً، فهو خطاب كريم من ملك كريم، ومضمونه يتعلق بأمر عظيم، وهو أمر العقيدة. إذا الأمر يحتاج إلى مستشارين، لذلك:

﴿قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿أَفْتُونِي﴾ يعني أشيروا عليَّ ﴿فِي أَمْرِي﴾ هذا، ودلوني ماذا أفعل، فأننا ﴿مَا كُنْتُ﴾ قبل ذلك، كما تعرفون عني ﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ برأي فيه وحدي ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ وتحضرون، وتبدون فيه رأيكم؟

وبذلك: أشركتهم معها تطبيقاً لخاطرهم، وضماناً لاجتماع كلمتهم، ووحدة صفهم، أمام هذا الأمر الخطير.

فماذا قالوا لها، وهي تستنجد بهم:

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

وفهم القوم منها أنها تريد الحرب، أو أنهم اغتروا بقوتهم التي كانوا عليها، وسلاحهم الذي كانوا يملكونه، إذ: ﴿قَالُوا﴾ لها ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً﴾ في أجسادنا وأسلحتنا ﴿وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ﴾ قوة وخبرة عالية في حروبنا فاطمئني من جهتنا. ﴿و﴾ لكن ﴿الْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ ونحن مطيعون لك. ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ونحن ننفذ ما تشائين، وما تأمرين به.

ولأنها حكيمة لم تفتن بهذه القوة، ولأنها عاقلة لم ترد لشعبها الهلاك، ولا لبلادها الدمار، حيث قالت لهم:

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

— لم تسترح بلمقيس لفكرة الحرب، وبيّنت لهم أضرارها على البلاد والعباد. واقترحت أسلوب الهدايا والمراسلات والمفاوضات قائلة ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى سليمان وجنوده ﴿بِهَدِيَّةٍ﴾ نخطب بها وُدّه، وندفع بها ضرره، ونختبر بها قصده.

﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ وعلى ضوء ما يرجعون به نفكر ماذا نفعل في الخطوة التالية؟ وجهزت الهدية. وأرسلتها إلى سليمان ﷺ.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أْتِمِدُونِي بِمَالٍ فَمَّا ءَاتَيْنِ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُم بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (٣٦) أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلْنَأْتِيَنَّهُمْ بِخُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾

يعني: ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ رسولها ﴿سُلَيْمَنَ﴾ بالهدايا ﴿قَالَ﴾ له سليمان: ﴿أْتِمِدُونِي بِمَالٍ﴾ من عندكم، لأترككم على شرككم وكفركم بالله!! هذا لا يمنعني أبداً من دعوتكم للإيمان ﴿فَمَّا ءَاتَيْنِ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُم﴾ من متاع الدنيا وزينتها فضلاً عن أنني لا أفرح بما حملتموه إليّ ﴿بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ هذه ﴿تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم حصرتم اهتمامكم ولذاتكم في اتباع أهوائكم. لذلك لا أقبل هديتكم ورشوتكم هذه، ولا آخذها منكم.

ثم قال له: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بهديتهم هذه، ثم كاشفه بما سيفعل معهم؛ حتى لا يأخذهم على غِرَّة؛ لعلهم بهذه المكاشفة يفكرون، ويعرفون الصواب فيهدتدون، قال له: قل لهم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾ لنحاربهم ﴿بِجُنُودٍ﴾ كثيرة قوية ﴿لَّا قِبَلَ لَهُمْ﴾ ولا طاقة عندهم ﴿بِهَا﴾.

﴿و﴾ كذلك سننتصر - بعون الله - عليهم ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا﴾ أي: من بلادهم ﴿أَذَلَّةً﴾ بسبب كفرهم ﴿وَهُمْ صَغُرُواْ﴾ بسبب أسرهم.

وخرج رسول بلقيس بهداياها من عند سليمان عائداً لبلاده، وفوراً كان قرار سليمان أن يحضروا عرشها عنده، قبل حضورها هي، لذلك:

﴿قَالَ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِيَ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨)

يعني: من منكم يستطيع أن يأتيني بعرش بلقيس، قبل أن تأتيني هي وقومها مأسورين مستسلمين؛ ليكون ذلك دليلاً لها على نبوته؟ وفي الحال:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (٣٩)
 ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ مارد ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ وهو واحد من جنود مملكة سليمان ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ﴾ كما تريد، وذلك ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾ أي: مجلسك هذا.
 ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾ على إحضاره، ونقله، وحمله ﴿لَقَوِيٌّ﴾ وعلى ما فيه، وما يحتويه
 ﴿أَمِينٌ﴾.

لكن يبدو أن سليمان عليه السلام أراد من هو أسرع في تحقيق هذه المهمة، لذلك..

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَتَّكِرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٤٠)

وبالفعل، قبل أن يغمض سليمان عليه السلام عينيه، وجد عرش بلقيس بين يديه، ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾: لم يحطمه، ولم ينتقل إليه، ويستولي عليه بل ﴿قَالَ﴾ لنفسه اعترافاً بالنعمة، ولمن حوله تعليماً لهم واجب الشكر: ﴿هَذَا﴾ الذي حدث هو ﴿مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ علي. وكان هذا الفضل ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ ليختبرني ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ إنعامه هذا

﴿أَمْ أَكْفَرُ﴾ فلا أشكر؟ ثم قرر الحقائق التالية قائلاً:
 ﴿وَمَنْ شَكَرَ﴾ الله على نعمه ﴿فَإِنَّمَا﴾ جزاء ما ﴿يَشْكُرُ﴾ عليه ﴿لِنَفْسِهِ﴾.
 ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بترك الشكر على النعم ﴿فَإِنَّ رَبِّي﴾ سبحانه ﴿عَنِّي﴾ عن الشكر
 ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإنعام، حتى على من لم يشكره.
 ثم التفت إلى من حوله، و:

﴿قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٤١)
 أراد سليمان أن يختبر ذكاءها، وقوة ذاكرتها، قبل أن يحادثها في شيء بعد حضورها.
 إذ ﴿قَالَ نَكِرُوا﴾ غيروا ﴿لَهَا عَرْشَهَا﴾ بتغيير بعض صفاته، ثم ﴿نَنْظُرْ﴾ إلى ما
 يكون منها ﴿أَتَهْدِي﴾ إليه، وتعرفه بعد التغيير الذي حدث؟ فندرك ذكاءها وقوة
 ذاكرتها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى معرفته.
 ونفذوا ما طلب سليمان، ونكروا عرش بلقيس، قبل أن تحضر من بلادها.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (٤٢)
 أي: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ بلقيس من مملكة سبأ باليمن إلى سليمان ﷺ ببلاد الشام،
 أطلعوها على عرشها الذي كانت قد تركته باليمن، دون إعلامها أنهم أحضروه من هناك،
 و ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ يعني أمثل هذا عرشك؟ وكان فيها ثبات وعقل
 وفطنة، إذ لم تقل إنه هو؛ لأنها تركته هناك باليمن، ولم تقل لا؛ لأنها رأت فيه من
 أوصاف عرشها الكثير، لذلك قالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وكان هذا أبلغ رد، وأحسن جواب.
 ولما سمع سليمان جوابها عرف ذكاءها، وعلمها، ثم قال مبيناً فضل العلم، وشاكراً
 نعم الله عليه: ﴿و﴾ أما نحن فقد ﴿أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ إنعاماً من الله علينا
 ﴿وَكُنَّا﴾ له ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أمرنا.
 ثم أضاف قائلاً:

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤٣)

يعني: ﴿و﴾ الذي ﴿صَدَّهَا﴾ ومنعها عن الإسلام ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ بالله، يعبدون غيره، فصارت مثلهم، تشاركهم كفرهم، مع علمها وذكائها، ولذلك لم تكن رؤية العرش منقولاً هكذا كافية لأن تعلن إسلامها.

ومن هنا: قرر سليمان ﷺ أن يريها معجزة أخرى، لتكون دليلاً لها على نبوته إذ..

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ۖ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤)

أي: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ وهو القصر، وكان بناءً عظيماً بناه سليمان بجنوده، وجعل أرضيته زجاجاً، تحته ماءٌ ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ هكذا ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ من الماء، ﴿و﴾ لَمَّا أَرَادَتِ الدُّخُولَ تنفيذاً لأمر سليمان ﴿كَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ للخوض في هذا الماء الذي حسبته ماءً.

وهنا: ﴿قَالَ﴾ لها: إنه ليس ماءً، بل هو ﴿صَرْحٌ﴾ بناء ﴿مُمَرَّدٌ﴾ أُمْلِسَ بني ﴿مِنْ قَوَارِيرَ﴾ زجاج، وفي الحال أدركت أن سليمان نبياً، وعرفت أن الذي أعطاه القدرة على هذه الأشياء، وسخر له مَنْ يفعلها هو الله سبحانه وتعالى الذي يستحق أن يعبد وحده، لذلك: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بالكفر، وعبادة غير الله. ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ الآن نفسي ووجهي وأمري ﴿مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وبهذا انتهت قصة سليمان ﷺ بما تضمنته من قصص النملة، والهدد، وبلقيس ملكة سبأ.

وتبدأ القصة الثالثة وهي: قصة صالح ﷺ. يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥) قَالَ يَتَقَوْمٌ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٦)

يعني: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ نبياً، يقول لهم ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده.

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ بالنسبة لما دعاهم إليه فريق آمن معه، وفريق كفر بدعوته ورسالته، وصاروا ﴿يَخْصِمُونَ﴾ مع بعضهم البعض، بسبب ذلك.

﴿قَالَ﴾ صالح لمن كفر ﴿يَنْقُورُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وهي العذاب ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ وهي إيمانكم يعني لم تكفروا فتستحقون العذاب بدلاً من إيمانكم الذي بسببه تنعمون، ولا تعذبون، بل تدخلون الجنة؟

يا قوم: ﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ من ذنوبكم وتقلعون عن كفركم، وتؤمنون به ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ من غضبه وعذابه؟

ماذا كان موقفهم من دعوته هذه؟

﴿قَالُوا أَطِيزَنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّفْتَنُونَ﴾ أي: ﴿قَالُوا﴾ له ﴿أَطِيزَنَا﴾ تشاء منا ﴿بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ ولم نعد نرى من وجوهكم إلا كل سوء ومصيبة تنزل بنا...! وأجابهم بكل قوة ووضوح:

﴿فَكَالَ﴾ لهم ﴿طَائِرُكُمْ﴾ أي: ما ينزل بكم من سوء وغيره، هو قدركم المكتوب لكم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، وليس بسبينا كما تدعون.

﴿بَلْ أَنْتُمْ﴾ في حقيقة الأمر ﴿قَوْمٌ مُّفْتَنُونَ﴾ تختبرون بالنعمة لتشكروا فتؤمنوا، أو لتطغوا فتكفروا، وتختبرون بالنقمة لتصبروا وتؤمنوا، أو لتجزعوا وتكفروا!!

وظل صالح يدعوهم، وهم على هذا الحال..

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٤٩)

يعني: ﴿وَكَانَ فِي﴾ هذه ﴿الْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينة ثمود ﴿سَعَةُ رَهْطٍ﴾ نفر ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ طبيعتهم كلها الفساد، وفعلهم كله الفساد، لا صلاح عندهم، ولا أمل فيه لديهم.

هؤلاء التسعة ﴿قَالُوا﴾ وقد ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ وتعاهدوا فيما بينهم قائلين

﴿لَنَبَيِّتَنَّهُ﴾ أي: صالحاً ﴿وَأَهْلَهُ﴾ قتلى بأيدينا، لنستريح منه، ومما يدعوننا إليه.
 ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بعد قتله وأهله ﴿لَوْلِيَّهِ﴾ أي: لأقاربه الباقين، حتى لا يطالبون
 بدمه: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي: ما نعرف من الذي قتل أهله، فضلاً عن
 معرفة قاتله هو، فكيف نتهم بقتلنا لهم؟ هذا لم يحدث منا إطلاقاً.
 ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما قلناه لكم.
 يقول الله تعالى:

﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾
 أي: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا﴾ حيث أخفوا ما بيّتوه من نية القتل لصالح عليه السلام وأهله،
 ﴿وَمَكْرَنَا﴾ نحن ﴿مَكْرًا﴾ بهم، وهو إهلاكهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنا، ولكننا نشعر
 بهم، ونحيط بكل أحوالهم.
 ثم يقول تعالى مبيناً ما فعله بهم نتيجة كفرهم، وإفسادهم، وسكوت قومهم على
 ظلمهم.

﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾
 ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
 وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ
 الأمر في قوله تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ﴾ لكل الناس، وهو أمر بالنظر للتدبر والاعتبار
 والاتعاظ وقد دمرهم الله أجمعين، المفسدين والساكتين عليهم، الراضين بفعلهم، وذلك
 بالصيحة، كما هو موضح في مواضع أخرى من كتاب الله، يقول الله تعالى:
 ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ خالية مُخَرَّبَةٌ ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾.
 ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الذي حدث لقوم صالح ﴿لَآيَةٌ﴾ مفيدة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
 قدرة الله ويوحده، وهذا بالنسبة للكافرين.

وأما هو عليه السلام والمؤمنين به، فيقول تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله
 ورسوله ﴿وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾ غضب الله وعذابه، من هذا الهلاك والدمار.

وبهذا انتهت قصة صالح عليه السلام، كما حكته هذه السورة الكريمة، ثم يقص المولى على حبيبه تبييناً له ولمن معه، وتعليماً لنا وللمسلمين إلى يوم القيامة:

القصة الرابعة وهي: قصة لوط عليه السلام. يقول الله تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾
أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطاً﴾ إذ قال لقومه ﴿و﴾ وهو يدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده ﴿أَتَأْتُونَ﴾ أنفعلون ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ وهي اللواط ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون إلى بعضكم البعض علانية.

يا قوم: ﴿أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ وهذا لا يليق بكم كبشر.
﴿بَلْ أَنْتُمْ﴾ يا قوم ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عواقب فعلكم هذا، وعقوبته عند الله عز وجل.

فماذا كان جوابهم له؟ يقول الله تعالى:

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ له، على دعوتهم للإيمان ونهيهم لهم عن إتيان الفاحشة ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ لبعضهم البعض ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ مع لوط ﴿مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ وأبعدوهم عنكم.

ثم قالوا استهزاء بلوط عليه السلام والمؤمنين معه ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ منكم، ويبعدون أنفسهم عنكم، بل يريدون منكم ترك لذاتكم.

ما هؤلاء الطغاة!! يرفضون الدعوة إلى الطهر، ويسخرون من أهلها!!

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَايَةِ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يعني: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ الذين آمنوا معه من الهلاك ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ﴾ التي لم تنكر عليهم فعلهم ﴿قَدَرْنَاهَا﴾ وحكمتنا عليها أن تكون ﴿مِّنَ الْغَيْرِ﴾ الهالكين.
﴿و﴾ أهلكتناهم، بأن ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا﴾ من حجارة من سجيل ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ مطرهم. وبذلك انتهت قصة لوط عليه السلام.

وبعد أن ذكر له أحوال هؤلاء الأنبياء الذين أهلك الله عز وجل مكذبيهم تمامًا، ثم يعود الخطاب الإلهي المباشر مع محمد ﷺ، الذي قال له ربه في مطلع هذه السورة: ﴿وَلَنُكَفِّرَنَّ الْقَرْيَاتِ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]. ليقول له أيضًا:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩)
يعني: ﴿قُل﴾ يا محمد أولاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي أهلك المكذبين من الأمم السابقة، ولم يفعل ذلك مع المكذبين من أمتي، بل أنعم عليهم بالقرآن.
﴿و﴾ ثانيًا: قل ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ واختار لرسالته من الأنبياء، فصبروا على ما أودوا في تبليغهم أقوامهم دعوة الله.
وثالثًا: قل للكفار ﴿ءَاللهُ خَيْرٌ﴾ لكم وأنفع ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معه غيره، مما لا ينفع ولا يضر..؟

نلاحظ: أن هذا الخطاب الإلهي للنبي ﷺ؛ يعتبر تمهيدًا لما يأتي بعده من الدلالات على وحدانية الله وقدرته سبحانه من خلق أصول النعم وفروعها على عباده.

يقول الله تعالى أولاً:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمُ أَن تَنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ ءَاللهُ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَهُ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٦١)

وهذا دليل يتعلق بالسموات، والمعنى: آلهتهم التي يعبدها غير الله خير، أم هذا الإله الذي ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بهذا النظام البديع الفريد!!؟

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿مَاءً﴾ مطرًا ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ﴾ يعني بهذا المطر،

لكم ﴿حَدَّاقٌ﴾ ﴿بَسَاتِينَ﴾ ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ منظر جميل بهيج النفوس، ويريح العيون.
و ﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ﴾ وما تستطيعون أنتم ﴿أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ على هذا
النحو، المتعدد الأصناف والألوان، والطعوم.

أيهما إذا خير؟ ﴿أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: غيره يستحق أن يُعبد، في هذه الحالة؟
﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ عن الحق إلى الباطل وعن الصواب إلى الخطأ.

ثم يقول الله تعالى ثانيًا:

﴿أَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَدًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ
بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦١)

وهذا دليل على قدرة الله ووحدانيته يتعلق بالأرض، والمعنى: آلهتهم التي يعبدونها
غير الله خير، أم هذا الإله الذي: ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ مستقرة، لا تميل ولا
تضطرب، مع حركتها السريعة الدوارة لتطيب لكم الحياة عليها.

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَدًا﴾ عذبة، تشربون منها.

﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ جبالاً ﴿رَوَاسِيَ﴾ تمنعها من الاهتزاز.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح ﴿حَاجِزًا﴾ بحيث لا يطغى المالح
على العذب فيفسده.

أيهما إذا خير؟ ﴿أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: غيره يستحق أن يُعبد في هذه الحالة؟ ﴿بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وحدانيته وقدرته على ذلك.

ثم يقول الله تعالى ثالثًا:

﴿أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ
أَلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢)

وهذا دليل يتعلق باحتياج الخلق إليه سبحانه، والمعنى: آلهتهم التي يعبدونها غير الله
خير، أم هذا الإله الذي: ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ الذي نزل به وأحوجه مرض، أو فقر، أو
كارثة، إلى اللجوء إلى الله ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ ليرفع عنه ذلك ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ الذي
نزل به.

﴿وَيَجْعَلُكُمْ﴾ كذلك ﴿خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: يخلف بعضكم بعضًا فيها بالسكنى، والمنفعة، والملك.

أيهما إذا خير؟ ﴿أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: غيره يستحق أن يُعبد في هذه الحالة؟ حقًا: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون قدرة الله، وتوحدونه.

ثم يقول الله تعالى رابعًا:

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

وهذا دليل على قدرة الله ووحدانيته باحتياجات خاصة للخلق في أوقات خاصة كذلك. والمعنى: آلهتهم التي يعبدونها غير الله خير، أم هذا الإله الذي: ﴿يَهْدِيكُمْ﴾ يرشدكم إلى ما تريدون الوصول إليه ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ﴾ بعلامات الأرض ﴿وَالْبَحْرِ﴾ بالنجوم ليلاً.

﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا﴾ مبشرات بالخير ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ بإنزال المطر، تنتفعون به، وتحيون عليه.

أيهما إذا خير؟ ﴿أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: غيره يستحق أن يُعبد في هذه الحالة؟ ﴿تَعَالَى اللَّهُ﴾ وتنزهه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معه من آلهة.

ثم يقول الله تعالى خامسًا:

﴿أَمَّنْ يَدَّأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

وهذا دليل على قدرة الله تعالى ووحدانيته يتعلق بالبعث والإعادة، والمعنى: آلهتهم لتي يعبدونها غير الله خير، أم هذا الإله الذي: ﴿يَدَّأُ الْخَلْقَ﴾ في الأرحام من نطفة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ خلقًا آخر بعد الموت، وقد قامت لهم الأدلة والبراهين على ذلك.

﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالإنبات. ومن المعلوم أن الرزق به يحيا الخلق، وبدونه تنقطع الحياة؛ ولذلك ذكره الله.

أيهما إذا خير؟ ﴿أَعْلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أي: غيره يستحق أن يُعبد في هذه الحالة؟
﴿قُلْ﴾ لهم إن كان عندكم دليل بهذا ﴿هَاتُوا﴾ إذا ﴿زُهِتْكُمْ﴾ أي: دليلكم
الذي بسببه تكفرون ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن عندكم دليلاً على أن معي من الآلهة
مَن يقدر على شيء من ذلك. وبالطبع فهم غير صادقين!!

هذا، وبعد أن بين الله من الأدلة على وحدانيته أنه مختص بالقدرة على كل شيء،
استدل على وحدانيته: بأنه مختص بعلم الغيب. حيث يقول الله عز وجل:

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٦٥)
نزلت هذه الآية لما سألوه ﷺ عن وقت قيام الساعة، فقال له ربه: ﴿قُلْ﴾ لهم:
﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ ومن في ﴿الْأَرْضِ﴾ شيئاً من الغيب. ولكن الله وحده
هو الذي يعلم ﴿الْغَيْبَ﴾ كله ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ جميعاً، سكان السموات والأرض
﴿أَيَّانَ﴾ متى ﴿يُبْعَثُونَ﴾؟ ولذلك ليست الفائدة في معرفة وقتها بل الفائدة في
الاستعداد بالعمل الصالح لها.

ثم يستهزئ بهم رب العزة قائلاً:

﴿بَلِ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلِ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (٦٦)
يعني: هم لا يسألون للمعرفة ﴿بَلِ أَدْرَكَ﴾ وتلاحق ﴿عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾
وشؤونها، حتى سألوا عن وقتها؟ ليس كذلك ﴿بَلِ هُمْ﴾ يؤمنون بها، ولكنهم ﴿فِي
شَكٍّ مِّنْهَا﴾ حتى سألوا عن وقتها؟ ليس كذلك أيضاً ﴿بَلِ﴾ الحقيقة أنهم ﴿مِنْهَا
عَمُونَ﴾ أي: عميت قلوبهم، ولا فائدة منهم، ولا رجاء فيهم.

وبالنسبة لسؤالهم عن وقت الساعة، فهم أصلاً يستبعدونه وينكرونها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ (٦٧) ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا
نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨)

يعني: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وينكرون قدرته ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ بعد
الموت ﴿وَأَبَاؤُنَا﴾ كذلك ﴿إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من قبورنا للبعث والحساب والسؤال

والجزاء؟ هذا لا يكون أبداً ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا﴾ الكلام ﴿نَحْنُ وَعَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل محمد، ولم يحدث شيء منه.

ولذلك ما ﴿هَذَا﴾ الكلام ﴿إِلَّا﴾ من ﴿أَسَاطِيرُ﴾ وحكايات ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ التي ليس لها أساس من الصحة، ولأجل هذا فنحن لا نصدقه، ولا نؤمن به.

وبالتالي، فإن الله تعالى يهددهم على هذا التكذيب، ويخوفهم بما حدث للمكذبين من قبلهم، حيث يقول عز وجل:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين لك، المنكرين للبعث ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ على تكذيبهم؛ إذ مشاهدة آثار ما نزل بهم من العقاب كفاية لأولي الألباب.

هذا، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لعدم إيمانهم ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ به، ويدبرون لك من الأذى، فإننا ناصروك عليهم.

ثم يحكي ربنا بعض ما يستهزون به في قوله جل وعلا:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

يعني: ويقول هؤلاء الكافرون ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ بالعذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه آت؟ لِمَ لَمْ يَأْت؟

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ﴾ قرب ﴿لَكُمْ﴾ مجيء ﴿بَعْضٍ﴾ هذا لعذاب ﴿الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مجيئته.

﴿و﴾ مع ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ في تأخير العذاب عنهم ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لأنهم لا يؤمنون بوقوعه أصلاً.

هذا، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ سبحانه ﴿لَيَعْلَمُ﴾ عنهم ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ وتخفيه من الاستهزاء بك، والإنكار لك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ منه بالستهم.

﴿و﴾ ذلك لأنه ﴿مَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ صغيرة ولا كبيرة ﴿إِلَّا﴾ هي مسجلة ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

ثم تنتقل الآيات للحديث عن القرآن، الذي هو دليل نبوة محمد ﷺ فتقول:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦)
 وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

أي: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ من عند الله تعالى؛ لأنه ﴿يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مما لا يعلمه محمد ﷺ.

﴿و﴾ أيضًا ﴿إِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الدنيا والآخرة، إن عملوا به.

وبعد أن بين الله تعالى أن القرآن من عنده، وأنه معجز، وأنه دال على نبوة محمد ﷺ، وضح أنه سبحانه هو الذي يفصل في أمر هؤلاء المعاندين، فقال جل جلاله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٨)

يعني: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ يوم القيامة، كغيرهم ﴿بِحُكْمِهِ﴾ العادل فيهم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يحكم به. لذلك:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩)
 إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الْقُصَمَ
 الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَتَىٰ بِهَدْيٍ الْعَمِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ
 يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

يعني: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ثق به وبنصره لك حيث:

أولاً: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ الدِّينِ﴾ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿الواضح.

ثانياً: إِنَّكَ قَدْ بَلَغْتَهُمْ، وَلَكِنَّكَ ﴿لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ وَهُمْ مَوْتَى الْقُلُوبِ، لَا يَسْمَعُونَ.

ثالثاً: إِنَّكَ قَدْ بَلَغْتَهُمْ، وَلَكِنَّكَ ﴿لَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ وَهُمْ صَمٌّ، قَدْ تَوَلَّوْا عَنْكَ، وَانصرفوا مدبرين، لَا يَسْمَعُونَ.

رابعاً: إِنَّكَ قَدْ بَلَغْتَهُمْ، وَلَكِنَّكَ لَا تَهْدِي ﴿الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ وَهُمْ عَمَى، قَدْ ضَلُّوا فَهْمَ لَا يَهْتَدُونَ.

يا محمد: ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ﴾.

ولأن الكفار كانوا يستعجلون العذاب الذي يهددهم به محمد ﷺ لعدم إيمانهم، ولأن العذاب الأكبر ينزل بهم في يوم القيامة، فإن الله عز وجل يذكر بعض علامات مجيء يوم القيامة، فيقول عز وجل:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢)

يعني: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني حق العذاب، وجاء وقته ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ﴾ قدرتنا ﴿دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ كعلامة على قيام الساعة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ حين خروجها.

ومن جملة كلامها الذي تقوله ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: آيات الله ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾.

ثم يذكر الله بعض مشاهد يوم القيامة، فيقول جل شأنه:

﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطَفِقُونَ ﴿٨٥﴾

يعني: في يوم القيامة يحشر الله، ويجمع بعد الحشر العام من كل أمة ﴿فَوْجًا﴾ أي: جماعة من الذين يكذبون، وهم كثيرون، حتى إذا اجتمع جمعهم وتكامل عددهم، قال لهم ربهم: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾ وأنتم ﴿لَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ أي: من غير فهم لها

﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ أخبروني ماذا كان عملكم الذي دفعكم إلى كفركم؟ إنه لا شيء سوى العناد ﴿و﴾ بذلك ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ﴾ وحق العذاب ﴿عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ لأنه لا عذر لهم يبدونه، ولا كلام لهم ينطقونه.

وهذا دليل على يوم القيامة الذي ينكرونه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِي ذَلِكَ لَا تَتَّقُوا اللَّهَ فَهُمْ يُقَوْمُونَ﴾ (٨٦)

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا﴾ ذلك لمنفعتهم وليس عبثاً، ومن قدر ذلك فهو قادر على البعث والإعادة في يوم القيامة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: خلق الليل والنهار ﴿لَايَتٍ﴾ كلها دلائل على وحدانية الله وقدرته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيستعدون بالعمل الصالح ليوم القيامة.

ثم يعود السياق إلى ذكر بعض مشاهد يوم القيامة، فيقول الحق جل وعلا:

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ﴾ (٨٧)

يعني: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ النفخة الأولى، ﴿فَفَزِعَ﴾ فزعاً يفضي إلى الموت، كل ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ثم يموتون ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ من الملائكة، وهذه النفخة هي الأولى المذكورة في قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

﴿وَكُلُّ أَتَوُهُ﴾ طوعاً لأمره سبحانه ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين.

وهذا دليل آخر على يوم القيامة الذي ينكرونه.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٨)

أي: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾ الآن ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ واقفة ﴿وَهِيَ﴾ في الحقيقة

﴿تَمُرُّ﴾ وتسير ﴿مَرَّ السَّحَابِ﴾ الذي تراه يسير، وذلك ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿الَّذِي أَنْفَعَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ صنعه.

حقًا: ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ولم يخلق هذه الأشياء عبثًا، ولم يخلقكم عبثًا وهذه كلها دلائل على وحدانية الله وقدرته، فعلى العقلاء أن يستعدوا بالعمل الصالح ليوم القيامة.

في هذا المقام يكون الحديث عن الجزاء في يوم القيامة، فيقول الله تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

أي: أن كل ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ وهي كل ما يرضي الله تعالى من الأقوال والأفعال ﴿فَلَهُ﴾ في هذا اليوم ﴿خَيْرٌ مِنْهَا﴾ وهو الجنة.

﴿وَهُمْ﴾ كذلك ﴿مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ لا يخافون.

﴿و﴾ أن كل ﴿مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وهي كل ما يخالف شرع الله تعالى من الأقوال والأفعال ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ جزاء عادلاً لهم، ويقال لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي.

يا حبيبي يا محمد، قل لهؤلاء جميعًا:

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ من ربي بهذه الأشياء:

أولًا: ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ الله وحده ﴿رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ وهي مكة المكرمة.

هو ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: جعلها أمانًا لكل من فيها.

- ﴿وَلَهُ سُبْحَانَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ في الوجود، خلقًا وملكًا وتصرفًا.
- ثانيًا: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الموحدين، المخلصين، المنقادين
لأمره سبحانه، العاملين بشرعه.
- ثالثًا: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ على الناس، وأبلغهم بما جاء فيه.
﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ﴾ بهداه، واتبع ما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ ومنفعته
راجعة إليه.
- ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن هده وكفر بما فيه، أو أنكره ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ
الْمُنْذِرِينَ﴾ فقط، وما عليّ إلا البلاغ.
- رابعًا: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أعطاني من نعمة النبوة والعلم، وعلى ما وفقني
لطااعته، وتبليغ رسالته.
- خامسًا: وقل للدنيا كلها ﴿سِيرِكُمْ﴾ الله سبحانه ﴿ءَايَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته
وقدرته الموجودة في الأنفس والآفاق، والتي تضمنها القرآن الكريم
﴿فَنَعْرِفُونَهَا﴾ لتهتدوا بها، وذلك إلى يوم القيامة.
- هذا، وما عليك بعد ذلك يا محمد من شيء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يا
كل البشر، وسيجازي كل إنسان بما يستحق.

